مجلة جامعة صبراتة العلمية
Sabratha University Scientific Journal

مجلة علمية نصف سنوية محكمة متخصصة في العلوم الإنسانية

تصدرها جامعة صبراتة بشكل الكتروني

التعاون الليبي التونسي في نشر الفقه المالكي والمحافظة عليه على مر العصور

Libyan-Tunisian cooperation in spreading Maliki jurisprudence and preserving it throughout the ages

د. عبد الله إمحمد عون
قسم الدراسات الإسلامية كلية الآداب بالجميل
جامعة صبراتة
abdallaoun58@gmail.com

رقم الإيداع القانوني بدار الكتب الوطنية:
2017-139

الترقيم الدولي:
ISSN (print) 2522 - 6460
ISSN (Online) 2707 - 6555

الموقع الألكتروني للمجلة:
https://jhs.sabu.edu.ly

التعاون الليبي التونسي في نشر الفقه المالكي والمحافظة عليه على مر العصور

Libyan-Tunisian cooperation in spreading Maliki jurisprudence and preserving it throughout the ages

د. عبد الله إمحمد عون
قسم الدراسات الإسلامية كلية الآداب بالجميل
جامعة صبراتة
abdallaoun58@gmail.com

ملخص:

يهدف البحث لبيان التعاون والتواصل بين فقهاء القطرين الليبي والتونسي في نشر وخدمة الفقه المالكي، والمحافظة عليه على مر الأزمان حتى وقتنا هذا، وهذا التعاون مازلنا نعيشه فيما يُعرف بالتبادل الثقافي من خلال المنح الدراسية بين القطرين؛ ولهذا لم أحدد فترةً بعينها، فأبرزتُ فيه نماذج من أعلامِ القطرين للاستشهاد فقط، بِداءً من وصول الفقه المالكي للمنطقة المذكورة، وما جاورها، وانتهاءً بالتعاون المستمر بينهما في تعلمه وتعليمه، وأدوارهم التي قاموا بها من خلال التأليف، والتدريس، وتولي القضاء، وتبادل المشورات، والرحلات المتبادلة عبر الأفراد والجماعات والرسائل.

الكلمات المفتاحية: ليبيا – تونس – التبادل الثقافي – الفقه المالكي.

Libyan-Tunisian cooperation in spreading Maliki jurisprudence and preserving it throughout the ages

Abstract

The research aims to demonstrate the cooperation and communication between the jurists of the Libyan and Tunisian countries in disseminating and serving the Maliki jurisprudence, and preserving it over the ages until our time, and this cooperation we are still experiencing in what is known as cultural exchange through scholarships between the two countries; For this reason, I did not specify a specific period, so I highlighted in it examples of the flags of the two countries for martyrdom only, starting with the arrival of the Maliki jurisprudence to the aforementioned region, and its vicinity, and ending with the continuous cooperation between them in learning and teaching it, and their roles that they played through writing, teaching, assuming the judiciary, and exchanging advice. And mutual journeys through individuals, groups and messages.

Keywords: Libya - Tunisia - cultural exchange - Maliki jurisprudence.

مقدمة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي منَّ علينا بالإسلام، وأعزنا بالقرآن، وبعث فينا سيد الأنام نبيا عربيا خاتما – صلّى الله عليه وسلّم– ، وبعد:

إن الغرب الإسلامي اشتهر بعموم انتشار الإسلام على مذهب السادة المالكية، الذي تميز به دون غيره من المذاهب الأخرى بتعدد مصادره، وهو من اعتبر أن عمل الصحابة وعمل أهل المدينة من أبرزها بعد الأربعة المتفق فيها، بالإضافة إلى القواعد العامة المتفرعة عنه والتي أحصاها بعض المالكية إلى ألف ومائتي قاعدة تشمل جميع أبواب الفقه ومجالاته، هذه الكثرة جعلته غنيا، وأعطته قوة وحيوية، وأسهمت في توسعه الجغرافي، ووضعت بين أيدي علمائه من وسائل الاجتهاد، وأدوات الاستنباط ما

يؤهلهم لبلوغ درجة الاجتهاد، ويمكنهم من ممارسته، ويسهل عليهم مهمتهم، كما تُعدُّ شهرة الإمام مالك – إمام دار الهجرة –، وعلو صيته، من الأسباب التي جعلت طلاب العلم يضربون أكباد الإبل قاصدين علمه الذي جمع فيه بين الفقه والحديث، وكان ممن قصده طلاب شمال إفريقيا الذين نقلوا علومه، وفتاويه، ولعل من أبرزهم عبدالرحمن العتقي الذي صار مرجعا يرجع إليه لمن أراد أن ينهل من فقه المالكية.

أهداف البحث:

نظرا للدور المشترك الذي لعبه فقهاء ليبيا وتونس في إيصال الفقه المالكي لشمال أفريقيا، وبقائه قويا رغم المخاطر والمخططات يرجع إلى تضامن الشعبين، وترابطهما، ووحدة ظروفهما في السلم والحرب؛ لذا أرى أنه لا يمكن الفصل بين الدورين ونحن نتكلم عن الفقه المالكي ببلاد المغرب العربي.

يهدف البحث إلى إظهار الدور التعاوني والتكاملي بين فقهاء ليبيا وتونس في نشر المذهب المالكي بالغرب الإسلامي على مدى العصور، وذلك من خلال الإجابة عن إشكاليات البحث وهي:

- هل كان لفقهاء القطرين الليبي والتونسي دور يذكر في نشر وإثراء الفقه المالكي؟
- وما مدى التعاون الوثيق بين فقهاء القطرين عبر العصور في هذا المجال؟
- وما أبرز ما أُلف في هذا الصدد؟

ويتم ذلك من خلال تتبعي للمنهج الاستقرائي والتحليلي للبحث عبر المباحث التالية:

المبحث الأول: بعض مشاهير الفقهاء الليبيين الذين أسهموا في نشر الفقه المالكي في شمال أفريقياعلى مر العصور.

المبحث الثاني: بعض مشاهير الفقهاء التونسيين الذين أسهموا في نشر الفقه المالكي في شمال أفريقيا على مر العصور.

المبحث الثالث: التعاون العلمي الفقهي المشترك بين البلدين على مر العصور.

تمهيد:

رأيتُ من الضرورة أن أشير في عُجالةٍ إلى بعض المذاهب المتعاقبة عن بلدان شمال أفريقية وبلاد الأندلس، وأبدأ بمصر.

مصر: أول بلد انتشر بها مذهب الإمام مالك بعد المدينة المنورة مهدِ المذهبِ، إلى أن قدم إليها الإمام الشافعي الذي أجبرته وأصحابه الخُطوبُ للدعوة لمذهبه مما أدى إلى انتشار مذهب الشافعي الجديد إلى جانب المذهب المالكي فيها، وهو الأحكام والفتاوى التي استنبطها بمصر، وخالف في بعضها فقهه الذي وضعه في العراق، وكان وسطا بين مدرسة الحديث بمكة، ومدرسة الرأي بالعراق، وصنف في مصر كتبه الخالدة التي رواها عنه تلاميذه عدا الرسالة التي كان قد ألّفها في العراق[1].

أمّا شمال أفريقيا من ليبيا إلى بلاد المغرب الأقصى فقد كان الغالب عليه في البداية مذهب الكوفيين، عدا قلة في القيروان أخذوا بمذهب الإمام الشافعي إلى أن أدخل علي بن زياد[2]، وآخرون مذهب الإمام مالك إليهم، فأخذ به الكثير، وأظهر انتشارا واسعا زمن الإمام سحنون فكثر مريدوه، ومازال منتشرا في هذه الأقطار إلى الآن.

وبالأندلس تضاربت الآراء حول كيفية دخول المذهب المالكي إلى بلاد الأندلس، والأرجح أنّ المؤسس للمدرسة المالكية في الأندلس هو زياد بن عبد الرحمن الملقب بـ(شبطون)[3]، روى عن الليث بن سعد وغيره، وسمع من مالك الموطأ، ولزياد في المدونة سماع معروف باسمه، وروى عنه يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي قبل رحيله لملاقاة مالك بالمدينة، كما أسهم الأخير في تثبيت المذهب المالكي في الأندلس بعد ما كانوا على فقه الأوزاعي، وقد حظي يحيى بالقرب من الخليفة عبدالرحمن بن الحكم بن هشام، وقد ذكر القاضي عياض مكانته فقال: (ولم يُعطَ أحدٌ من أهل العلم بالأندلس منذ دخلها الإسلام من الحظوة، وعظم القدر، وجلالة الذكر، ما أعطيه يحيى بن يحيى، وكان الأمير عبد الرحمن بن الحكم يبجله تبجيلا لأب، ولا يرجع عن قوله، ويستشيره في جميع أمره، وفي من يولّيه ويعزله؛ فلذلك كثر القضاة في مدته)[4]، وتحمل مسئولية المذهب من بعده محمد العُتبي بعد خروج يحيى وتوجهه لمصر ، التي التقى فيها بأشهر عَلمَي المذهب المالكي: ابن القاسم وابن وهب، وذلك بعد وفاة مالك.

اهتم أهل الأندلس بالعُتبية تعلما وتدريسا حتى أصاب أهل الأندلس فتنة البربر التي كانت سببا في موت كثير من العلماء، فسبب في فرار آخرين مما أدى إلى ضعف مدرسة الأندلس؛ ليكتب لها الحياة من جديد على يدي أبي الوليد الباجي وآخرين، كل هذه الأنشطة المالكية المتعاقبة أسهمت في إحباط عديد المحاولات التي كانت تسعى لنشر مذهب الشافعي، وأبي حنيفة، وأحمد، وداوود بالأندلس، والذين لم يُفلحوا ،فماتت المذاهب ببلاد الغرب الإسلامي بموتهم[5]، ومن بلاد الأندلس واصل المذهب المالكي مدّه ليصل إلى فاس بواسطة طائفة من العلماء من أبرزهم درّاس بن إسماعيل[6] بعد جولات قضاها متلقيا للعلوم الشرعية بمختلف فنونها على المدرسة المالكية، وقد تميز أهل المغرب الإسلامي بالإضافة إلى الجهود الفقهية، عنايتهم بمقاصد الشريعة، وقد أظهر الدكتور حمزة أبو فارس ذلك في قوله: (لعلم ما يحسب لفقهاء المالكية المغاربة تميزهم في علم المقاصد، بل ويضاف إلى ذلك بلوغ هذا العلم القمة في زمن كثرت فيه الفتن والتقلبات السياسية، مما يدل على براعة المالكية المغاربة في هذا الفن الذي يحتاج إليه في النوازل أكثر من غيرها)، ووضح قصده بقوله (بلوغ القمة) كتاب الموافقات حيث قال: (لمع نجم الشاطبي منذئذٍ بالمشرق في هذا الأفق العلمي، ثم أخذ يزداد سطوعاً حتى أصبح يُستضاء به في بحوث أصول الشريعة ومقاصدها، وتوضح به المَحَجَّة، وتقام بما فيه الحُجَّة)[7].

المبحث الأول: بعض مشاهير الفقهاء الليبيين الذين أسهموا في نشر الفقه المالكي في شمال أفريقيا على مر العصور

نظرا لما يتميز به القطران – الليبي والتونسي– من موقع جغرافي، يجعلهما البوابة الشرقية الرئيسة لبلدان شمال إفريقيا والأندلس– باستثناء مصر– وخاصة زمن التنقلات البرية قبل أن يعرف العالم النقل الجوي ،فقد كان الحج والتجارة موسمين لأهم قنوات الاتصال بين مناطق العالم الإسلامي، وكانا أيضا موسمين عِلميين إضافة إلى كون الحج عبادة ورحلة روحية، فموقع ليبيا جعلها دارا لعبور الحجاج والتجار المغاربة عموما والتونسيين خصوصا، مما جعل الليبيين يستفيدون ويفيدون من هاته الرحلات، فعلّموا وتعلموا، وتأثروا وأثروا، فكتبوا المخطوطات، وأقاموا الشروح، وتبادلوا الفتاوى؛ لالتقائهم بأهل العلم، فالتفّ حولهم طلبته، شهد لهم كل من عاصرهم بهذا الجهد حتى نقل أبو العرب قائلا: (كان بإفريقيا رجال عدول بعضهم بالقيروان وتونس وطرابلس)[8].

فمن أشهر رجال المذهب المالكي الليبيين الذين أسهموا في نشر وخدمة المذهب المالكي:

***علي بن زياد**[9]، الطرابلسي باعتبار مولده، والتونسي المنشأً، وهذا ما قاله القاضي عياض: (وُلد بطرابلس، ثم انتقل إلى تونس فسكنها)، وهو نفسه ما ذكره تلميذه أسد بن الفرات، وتبنى هذا الرأي الطاهر بن عاشور[10]، وهناك من قال غير ذلك.

كانت بداياته التعليمية بطرابلس حيث أقامت أسرته بعد الفتح الإسلامي لطرابلس، ولكنني لم أجد حديثا عن مشايخه الأوائل إلى أن انتقل إلى تونس وتتلمذ على يدي شيخه خالد بن عمران كما ذكره القاضي عياض، وفي مصر على أبرز شيوخه: ابن لهيعة، والليث بن سعد، ومن مصر إلى الحرمين عن شيخه الإمام مالك الذي سمع منه الموطأ، ثم العراق تتلمذ على شيخه سفيان الثوري، ولما عاد إلى المغرب الإسلامي كان محملا بإرث علمي زاخر حتى أنه عُدَّ أول من أدخل الموطأ وجامع سفيان إلى المغرب، وكان الإمام سحنون من أبرز تلاميذه، والذي شهد له بأنه أول من فسّر للمغاربة قول مالك، وغيره من تلاميذه المشهورين، واستقر به المقام بتونس بعد زيارته لطرابلس ومات هناك[11].

ونتيجة لهذه المنزلة العلمية التي شهد له بها كل من عاصره، أو تتلمذ على يديه، أو عرفه، ومن هذه الشهادات: قال سحنون: (ما أنجبت أفريقيا مثل علي بن زياد، ولم يكن في عصره من هو أفقه منه ، ولا أورع)[12]، ووصفه الذهبي بالعلم، والورع، والعبادة، فقال:

(كان إماما ثقةً متعبدا، بارعا في العلم...)[13]، لم تكن شهاداتٌ من فراغ، فقد ترك إرثا علميا لم تغفله أنظار البحاث والمهتمين منها: " خير من زنته "، قيل أنه رأى في منامه أن يسميه كذلك، وهذا ما جاء على لسان أبي طالب القيرواني كما أورده القاضي عياض في ترتيب المدارك[14]، وذكر الذهبي بأنه اشتمل أبواب البيوع، والأنكحة[15]، وقد كان لكتابه: " موطأ ابن زياد " الذي دخل به بلاد المغرب الإسلامي أثرا بيّنا في نشر المذهب المالكي فيها، حيث نشره بين تلاميذه الذين صاروا يتناقلون آراءه

وفتاويه في تونس خاصة، وبعموم بلاد المغرب الإسلامي، ومن هؤلاء: ابن رشد، وسحنون، وابن الفرات، وهذا ما شهد به أهل العلم ومنهم الطاهر بن عاشور الذي قال عنه: (فإن موطأ علي بن زياد الطرابلسي هو أقوم وأنفس مخطوط ليبي موجود اليوم في مكتبات تونس)، وحوى هذا الكتاب أبوابا في الزكاة، والذكاة، والعقيقة، والصيد وغيرها[16].

أكتفي بهذا عن عالمٍ بلغت شهرته الآفاق، وقد كتب عنه الكثيرون، وأذكر غيره ممن يعدون أقل منه شهرة مرتبين حسب سنوات الوفاة، وهم:

* **أبو سلمان**؛ محمد بن معاوية الحضرمي الطرابلسي، سمع الموطأ من مالك، وسمع من أبي معمر، والليث بن سعد، ومن ابن لهيعة، وسمع منه بكر بن حماد، وفرات بن محمد، شهد له أبوعلي بن البصري بأنه أعلم من محمد بن ربيعة الحضرمي الطرابلسي[17].

* **أبوجعفر**؛ أحمد بن نصر الداودي الطرابلسي الذي عاش في طرابلس، ووضع فيها كتابه "النامي في شرح الموطأ"، و" الواعي " في الفقه ، وانتقل لتلمسان وتُوفي بها سنة أربعمائة واثنتين هجرية[18].

* **حلولو أبو العباس**؛ أحمد بن عبدالرحمن الزليطني القروي، له مجموعة من المؤلفات القيمة منها: " الضياء اللامع في شرح مع الجوامع "، و" شرح مختصر خليل "، وغيرهما، ويُعد من علماء الأصول إلى جانب الفقه، تولى القضاء بطرابلس ثم انتقل إلى تونس وفيها توفى عام ثمانمائة وثمانية وتسعون هجرية[19].

* **التاجوري**؛ عبد الرحمن بن محمد بن أحمد، العالم الفلكي الشهير له مؤلفات كثيرة في هذا المجال، وقصته مع قبلة جامع القرويين بفاس مشهورة، توفى عام تسعمائة وستون هجرية.

* **الخروبي**؛ محمد بن علي الطرابلسي، العالم الفقيه المحدث، من مواليد قرقارش إحدى مكونات طرابلس الكبرى، أخذ عن أحمد الزروق، ومحمد الزيتوني وغيرهما، له مؤلفات في العقيدة والتفسير والتراجم وغيرها، تُوفى بالجزائر عام تسعمائة وثلاثة وستون هجرية.

* **ابن مقيل**؛ العالم الجليل الشيخ محمد بن محمد مواليد طرابلس ومفتيها، أخذ عن: عبد السلام بن عثمان، وأبي العباس؛ أحمد بن ثابت وغيرهما، تميز بفتاويه الجيدة، واجتهاداته في الفقه، تُوفى عام مائة وواحد بعد الألف هجرية[20].

* **أبو عبدالله**؛ محمد المسعودي، له عدة مؤلفات من بينها: "لوامع الغرر على نظمها للآلئ والدرر في مصطلح علم الأثر"، المتوفى سنة ألف ومائتين وثمانية وثمانين هجرية.

* **البوصيري**؛ عبد الرحمن بن محمد بن القاسم، الفقيه والأصولي والمحدث، من مواليد غدامس الليبية، وبها تلقى علومه الأولية، تنقل بين تونس ومصر والأستانة طالبا للعلم ، له مؤلفات منها: كتابه "اللآلئ

والدرر في المحاكمة بن العيني وابن حجر"في الحديث، و" نزهة الثقلين في رياض إمام الحرمين"، و"مصطلح حديث خير البريئة "، تُوفب طرابلس عام ألف وثلاثمائة وأربعة وخمسين هجرية.[21].

* **محمد** بن محمد بن عامر، مؤلف كتاب "ملخص الأحكام الشرعية على المعتمد من مذهب المالكية"، المتوفى عام ألف وثلاثمائة وواحد وثمانين هجرية .

* **أبو عبدالله؛** محمد بن علي الغرياني الطرابلسي الأصل، التونسي الدار، محدث تونس ومسندها، له مجموعة في إجازته من مشايخه المصريين والحجازيين، يروي عن الشمس محمد البليدي، وتاج الدين القلعي المكي، والعماوي، ويروي الغرياني الفقه المالكي عن أبي حفص عمر الجمني عن إبراهيم الجمني عن الخرشي والزرقاني وغيرهم[22].

* **التاجوري؛** الشيخ عبدالسلام بن صالح: نظرا لما تميز به الشيخ عبدالسلام – في تقديري– من جمعه بين وحدة المكان، ووحدة العلوم ، حيث تلقى العلم من عديد مشايخ من بلدان الغرب الإسلامي، وجمعه لفتاوى أيضا من تلك البلدان، وتأثره بالمدرسة المالكية المغاربية؛ رأيت أن أبسط الحديث فيه:

اسمه ونسبه: أبو محمد؛ عبدالسلام بن صالح بن عثمان بن عزالدين بن عبدالوهاب بن عبدالسلام الأسمر التاجوري، وُلد عام ألف وثمانية وخمسين هجرية بطرابلس الغرب[23].

شيوخه: تلقى علومه على أيدي مشايخ كثر من أمصار متعددة، مما أعطى له طابعا مميزا من الفتاوى القطرية عبر شمال أفريقية، التي تعيش حياة إسلامية بكل صنوفها وفق المدرسة المالكية، ومنهم:

* **من طرابلس الغرب** أخذ العلم من أفواه الكثيرين، أبرزهم الشيخان:

ـ أحمد بن محمد المكني المولود عام ألف واثنين وأربعين هجرية، والذي تعلم الفقه، وخالط أهله حتى صار فقيها، ولزهده انقطع للعبادة بعد أن اعتزل الإفتاء، توفي سنة ألف وست وخمسين هجرية.

ـ محمد بن محمد بن مقيل، من علماء أهل السنة المالكيين الذي تولى الإفتاء بطرابلس، وعرف بالفضل والذكاء، توفي عام مائة وألف هجرية.

ـ وآخرون من بينهم:

محمد بن مكرم التاجوري، علّمه الحروف والكتابة بزاوية غودش من نواحي تاجوراء، والشيخ عبدالله الحمروشي، والشيخ محمد عريبي، ومن أكابر مشايخه أيضا: الشيخ أحمد بن محمد العالم ؛ التنوخي، ومحمد بن عيسى بن عاشور الغرياني، والشيخ أحمد بن عبدالرحمن النعاس، وأبوإسحاق؛ إبراهيم بن عبدالله بن إبراهيم الجمني العالم الزاهد[24].* **مشايخه من مصر:** أبو الإرشاد؛ نورالدين علي بن زين العابدين بن محمد بن زين العابدين بن الشيخ عبدالرحمن الأجهوري، وهذا العالم تلقى العلم على أيدي كبار علماء عصره منهم:

البدر القرافي، وعثمان القرافي، وأبو النجاة السنهوري، ولأبي الإرشاد عديد الشروح منها:

" شروح على مختصر خليل " متعدد الأجزاء، و" حاشية على شرح التتائي على الرسالة "، و"شرح ألفية مالك "، وغيرها[25].

* **مشايخه من تونس:** الشيخ أبوالفضل؛ قاسم بن الشيخ زروق ابن الشيخ محمد بن مرزوق بن عظوم القيرواني، المحقق للفتيا والنوازل، وكان ممن عاصره القاضي الزاهد أبو يحيى الرّصاع الذي عمل مفتيا دون أجرٍ إلا ما يسد به قوته، صاحب برنامج الشوارد على الشامل، وله عديد الأجوبة على جملة نوازل فقهية[26].

* **مشايخه من الجزائر:** أبو زكريا؛ يحيى بن محمد النائلي الشاوي الملياني، العالم المشهور صاحب الصيت، الذي أخذ العلم على أيدي علماء أفذاذ منهم:

محمد بن محمد البهلول، والشيخ سعيد قدوره، والشيخ علي بن عبدالواحد السجلماني، وللشاوي مؤلفات منها: " حاشية على شرح أم البراهين "، وله " لاميّة في إعراب اسم الجلالة "، كما أخذ عنه كثيرون أمثال: الشيخ علي النوري، والشيخ عبدالعزيز القراني، توفي الشيخ الشاوي رحمه الله، ودُفن بالقرافة[27]سنة ست وتسعين وألف هجرية[28].

* **مشايخه من المغرب:** الشيخ عبدالقادر بن علي بن يوسف الفاسي، من بيتٍ شهيرٍ بالفضلِ والعلمِ، وقد أخذ العلم من شيوخه ومنهم والده، وأخوه أحمد، وعم أبيه العارف الفاسي، ومحمد الزيّان، وأبو عبدالله الحبان، وابن عاشر وغيرهم، وأخذ عنه: ابناه محمد وعبدالرحمن، وعيسى الثعالبي، وأبو سالم العيّاشي، ومحمد العربي، ومحمد بن المبارك المغراوي...[29].

تلاميذ الشيخ عبدالسلام: أخذ عنه العلم والفقه جمعٌ كثيرٌ من طلابِ العلمِ أخص منهم:

ـ أبو عبدالله؛ محمد بن عبدالحفيظ النعّاس المولود بتاجوراء، والتي بها حضر دروس العلم على أيدي: الشيخ عبدالسلام، وأبي عبدالله؛ محمد بن يحيى، ونال حظا وافرا من علوم التصوف، وصار من كبار المحدثين والصالحين.

ـ علي الفرجاني، دفين شنني بقابس.

مكانته العلمية: ارتحل كثيرا في طلب العلم، فقد تلقى العلم على عدد يصعب حصر أسمائهم وبلدانهم، والتقى كذلك بعديد أهل العلم بالمغرب العربي، وبتونس التقى الشيخين: علي الفرجاني، وإبراهيم الجمني، وبالمغرب التقى الشيخ محمد المرابط الدلائي، ويلاحظ ذلك من خلال مشايخه، أمّا في المشرق من خلال رحلات الحج التقى الشيخ عبدالباقي الزرقاني، مما كوّن لديه مخزونا علميا مكّنه من تصدرِ الفتوى، وتأليفِ عديد الكتب منها:

" تذييل المعيار " الذي ضمَّ عديد الفتاوى من مصر وتونس والجزائر والمغرب وليبيا بالطبع، متأثرا بالونشريسي، وكتابه المعيار المعرب الذي جمع فيه صاحبه فتاوى الأندلس والمغرب، وقد ذكر أسباب تأليفه لهذا الكتاب أبرزها:

* حدوث نوازل جدّت بعد معيار الونشريسي، فرأى ضرورة جمعها.

* وحدة الجغرافيا من مصر إلى بلاد الغرب الإسلامي، وتأثره، وتأثيره في هذه المنطقة[30].

" فتح العليم في مناقب جده الشيخ عبدالسلام بن سليم "، وقد انتقد الأستاذ على المصراتي، وابن غلبون– رحمهما الله– هذين الكتابين لِمَا ورد فيهما – حسب قولهما – من مبالغة في مسألة الكرامات، وبعض الخرافات التي تتعارض مع النصوص الشرعية[31].

" الإشارات لما في طرابلس الغرب من المزارات".

" شرح على مختصر الشيخ خليل في الفقه المالكي".

" أجوبة عن الفاسي".

من كل ما سبق تبيّنت علاقة هذا العالم الجليل بكل علماء المنطقة شرقا وغربا، حيث جمع مجموع الفتاوى التي أفتى بها فقهاء حواضر بلدان شمال أفريقية، ولمّا وجد في أجوبتها خلافا، انتقل بها باحثا عن أجوبة تشفي غليله من كبار علماء المنطقة رغم صعوبة التواصل، وقلة المواصلات.

أهلته مكانته العلمية لتولي منصب القضاء بعد أن ترك هذا المنصب شيخُه أحمد المكني بإرادته، وبقي شيخُنا عبدالسلام فيه طول حياته والتي تميزت فترة قضائه بالحكمة والرصانة والثبات في إصدار الأحكام، والاعتماد على مصادر التشريع بعد تحليل القضايا ودراستها دراسة مستفيضة[32].

المبحث الثاني: بعض مشاهير الفقهاء التونسيين الذين أسهموا في نشر الفقه المالكي في شمال أفريقيا.

انتشر الفقه المالكي على نطاق واسع في القطر التونسي، واشتهر التونسيون بتلقيهم واهتمامهم بهذا الفقه جمعا وتدوينا وتذييلا وتدريسا، ومازالت تونس من أبرز دول المغرب العربي تمسكا به، ولعل وجود الزيتونة بها قد لعب دورا رئيسا في ذلك، وبالرغم من التقلبات الأخيرة بعد عام2011 والتي شهدت فيها بعض الأقطار رأيا فقهيا يعمل على الانتشار إلا أن تونس حافظت وبقوة على ثبات المذهب المالكي.

من أبرز الأعلام التونسيين الذين أسهموا في نشر وتوطيد أركان الفقه المالكي:

* **أبويوسف التونسي؛**م حمد بن شبيب، له سماع من أسد، وعلي بن زياد، ولي قضاء تونس توفي سنة ست وسبعين ومائتين[33].

* **أبوعبدالرحمن**؛ عبدالله بن غافق التونسي، كان موصوفاً بالورع والعلم والكرم، سمع من سحنون، معدوداً في أصحاب سحنون، ثقة مأموناً، وسمع من زيد بن بشير، عرض عليه إبراهيم بن أحمد قضاء القيروان فامتنع، تُوفي بتونس عام سبع وسبعين ومائتين[34].

* **أبوحبيب**؛ نصر الرومي التونسي، درّس بتونس، وكان مملوكا أمياً لا يقرأ، ولا يكتب، أتى الى مصر، وجلس في حلق العلماء، ثم عاد إلى القيروان، وجالس الفقهاء بها حتى صار واحدا منهم، توفي سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة[35].

* **أبومحمد**؛ عبدالحميد بن محمد المغربي، المعروف (بابن الصائغ)، قيرواني سكن سوسة، أخذ عن العطار، وابن محرز، والبوني، والسيوري، وسمع أباذر الهروي، وكان فقيهاً فهماً فاضلاً، وله تعليق على المدونة، وبه تفقه المازري، والمهدوي، وأبوعلي البربري، وآخرون[36].

* **أبوعبدالله**؛ محمد بن جابر بن محمد بن قاسم بن محمد القيسي الوادآشي، أصيل تونس ولد ونشأ بها، وجال في البلاد المشرقية والمغربية، واستكثر من الرواية، ثم قدم الأندلس، ثم رحل إلى المشرق حتى وصل بلاد الحجاز مرتين، ولقي أئمة من العلماء والمحدثين، توفي رحمه الله تعال سنة تسع وأربعين وسبعمائة[37].

المبحث الثالث: التعاون العلمي الفقهي المشترك بين البلدين على مر العصور

ساعدت حركات المد والجزر بين القطرين لأسباب متعددة منها: العلمية، والمعيشية، والسياسية، والصحية، والجغرافية في التنقل والتمازج والزواج بين مواطني القطرين، وأسهم كل ذلك في تعلم العلوم العامة منها والفقهية على وجه الخصوص، فخلق نوعا من التبادل المنفعي والعلمي هنا وهناك، فتلقى كلٌّ منهما العلم عن الآخر.

المطلب الأول: طلابُ علمٍ ليبيون أجيزوا من مشايخ تونسيين.

يبرز هذا المطلب التعاون العلمي الليبي التونسي منذ القدم في شتى العلوم، فكما كان لليبيين الفضل في إيصال المذهب المالكي لتونس وإثرائه، كذلك كان للفقهاء التونسيين الفضل على عدد من طلاب العلم الليبيين قديما، ومازال إلى هذا التاريخ في تلقي العلوم عامة والشرعية منها خاصة في الجامعات التونسية تحت طائلة التعاون المشترك، فالتعاون بين البلدين مستمر ولا تؤثر فيه التقلبات السياسية ولا الجيوسياسية، ومن هؤلاء الطلاب:

* **الدرناوي**؛ محمد بن حسين، المتوفَى عام ألف وسبعمائة وسبعة وتسعين ميلادية تحصل على إجازة من جامع الزيتونة.

* **الغرياني**؛ محمد بن محمد، المتوفَى عام ألف وثمانمائة وواحد ميلادية، هاجر إلى القيروان، وتعلم هناك حتى صار عالما من علمائها.

***الطوبيي**؛ محمد بن أحمد، من مدينة الطوبية بين طرابلس والزاوية الغربيتين، المتوفَى عام ألف وثمانمائة وثلاثة ميلادية، نال الإجازة في القضاء من الزيتونة.

* **الجمني**؛ موسى بن عمر بن عبدالرحمن أجاز محمد أبن عبدالحفيظ بن عبدالنبي.

* **الحضيري**؛ الشيخ محمد بن أحمد المتوفَى عام ألف وثمانمائة وثلاثة عشر ميلادية أقرَّ بإجازته لتلميذه محمد بن محمد البخاري الغدامسي، حيث قال: (...قد طلب مني أن أجيزه في تدريس العلوم، وما سمعه مني من منطوق ٍومفهوم....فأجزته إجازةً مطلقةً)[38].

* **ابن غلبون**؛ عبدالله بن أحمد، نشأ بمصراتة، وارتحل لجربة، وتعلم عن الفقيه سيدي إبراهيم الجمني، ثم إلى مصر فأخذ عن كبار مشايخها[39].

المطلب الثاني: تونسيون أخذوا الفقه عن أيدي ليبيين.

* ابن أشرس[40]: أبو مسعود؛ عبدالرحيم بن أشرس، وقيل عبدالرحمان، من أهل تونس، وهو ثقة فاضل، سمع من مالك بن أنس، ومن ابن القاسم، شهد له سحنون بحفظ الرواية، وكان شديد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو من طبقة علي بن زياد، وكان من الذين أخذوا عنه، وكما ذكرتُ أنّ عليا بن زياد طرابلسيٌّ.

* أبوشجرة؛ شجرة بن عيسى المعافري[41]، وقيل أبوزيد، من الطبقة الأولى، من أهل تونس، لم ير مالكا، سمع ابن زياد، وابن أشرس، وأباه عيسى، وغيرهم، وأبوه عيسى ممن روى عن مالك والليث، وُلِيَ شجرة قضاء تونس في أيام سحنون، سمع عنه جماعة من أصحاب سحنون وغيرهم، توفى عام اثنين وستين ومائتين.

* أبو عمر؛ البهلول بن راشد[42]: من أهل القيروان، كان ثقة مجتهداً ورعاً مستجاب الدعوة، ذا علم كثير، سمع من مالك، والثوري، وعبد الرحمان بن زياد، ويونس بن زيد، وحنظلة بن أبي سفيان، وموسى بن علي بن رباح، والليث بن سعد، والحارث بن نبهان، سمع الموطأ والجامع الكبير من علي بن زياد، وسمع جامع سفيان الصغير من ابن أبي الخطاب، وأبي خارجة، تُوفي سنة ثلاث وثمانين ومائة.

كما أجاز عددٌ من أهل العلم الليبيين طلابا تونسيين، منهم الشيخان:

* **الخيالي الطرابلسي**؛ الشيخ أحمد بن علي بن عبدالصادق أجاز تلميذه الشيخ أحمد بن الصغير السوكني التونسي عام ألف وسبعمائة وأربعة وستين ميلادية.

* **الحضيري**؛ الشيخ محمد بن أحمد عام ألف وثلاثمائة وثلاثة عشر ميلادية أجاز تلميذه محمد بن محمد البخاري الغدامسي بتونس، وجاء في إجازته: (....قد طلب مني أن أجيزه في تدريس العلوم، وما سمعه مني من منطوق ومفهوم ، فأجزته إجازةً مطلقةً).

كما تبودلت الآراء والمشاورات بين علماء ومشايخ البلدين عبر الأزمان، مما يبين بما لا يدعو مجالا للشك بأن الحركة العلمية كانت واسعة – رغم الظروف العسيرة– فلم تكتف بالإجازات، وإنما تعدت أبعد من ذلك حتى شملت الرسائل، والفتاوى، والاستشارات الفقهية، فقد كتب الجبالي كتابا في طرابلس الذي سمّاه: " تحفة الإخوان في التحذير من حضور حضرة فقراء الزمان " الذي أحدث ضجةً هائلةً،

فأرسل به الجبالي للشيخ علي النوري الصفاقسي لإبداء الرأي، وأرسل أيضا الشيخ محمد بن يونس الغدامسي مؤلفَه لجامع الزيتونة؛ ليقيمه الشيخ التونسي محمد بن المقدم، الذي أجازه ووافقه بقوله: (رأيته على الصواب، وإنه على نهج قويم، وصراط مستقيم)، وفي المقابل أرسل أهل جربة التونسية في أواخر القرن الثاني عشر – كما ذكر كاتبه – رسائل لفقهاء طرابلس عن مسائل شرعية ساهم في الإجابة عنها فقهاؤها، ومنهم الشيخ عبدالدائم الأنصاري الذي أجاب بنظم شعري عن تساؤلاتهم، وتبودلت إهداءات الكتب بين القطرين، ومنها ما أهداه الشيخ عبدالسلام الأسمر لنظرائه بتونس، والتي لاقت قبولا واستحسانا؛ ككتاب " الوصية الكبرى "، وكتاب " روضة المريدين بجامعة العروسين" [43].

الخاتمة:

الحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات، أحمده على توفيقه، وأسأله السداد فيما كتبتُ، وصحة ما توصلتُ إليه من نتائج:

* الفقه المالكي هو الأكثر انتشارا في بلاد الغرب الإسلامي منذ القدم، وسيظل رغم محاولات استبداله، أو طمس معالمه.

* مساهمة الليبيين والتونسيين مساهمة بيّنة واضحةٌ في هذا الجانب.

* التعاون وثيق قديم بين القطرين في المجال الفقهي، ومازال إلى الآن، وسيستمر.

وأوصي بالتوسع البحثي في هذا المضمار؛ لإظهار أحقية هذا المذهب في البقاء والاستمرار لمميزات قلما توجد في غيره في وقت صارت النزاعات الدينية سمته، واصطياد الخلافات الفقهية ديدنه، وتوظيف كل ذلك لتشتيت الأمة ، وجعلها فريسة بمخالب أعدائها.

﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾(هود88).

الهوامش:

[1] من سيرة الإمام الشافعي(ج1 / ص3).

[2]صلاح الدين خليل الصفدي – الوافي بالوفيات ، المحقق: أحمد الأرناؤوط ، وتركي مصطفى(دار إحياء التراث– بيروت– 1420هـ/ 2000م– ج15 / ص11)، وفهرس الفهارس للإدريسي(ج1 / ص491).

[3]أبونصر؛ علي بن هبة الله بن جعفر، الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكُنى (دار الكتب العلمية–بيروت– ط1:1441هـ/1990م– ج2 / ص60).

[4]ترتيبالمداركوتقريبالمسالك(ج1 / ص381).

[5]نفس المصدر (ج1 / ص25).

[6]أبو ميمونة.؛ درّاس بن إسماعيل ، من أهل مدينة فاس ، سمع من شيوخ بلده ، وبإفريقية من : أبي بكر ابن اللباد وغيره ، ومن شيوخ الأندلس،. وسمع من علي بن أبي مطر ، وحدث بكتاب ابن المواز بالقيروان ، ودخل أيضاً الأندلس مجاهداً، وطالباً، فسمع منه أبو الفرج بن عبدوس، وخلف بن أبي جعفر، وحدث عنه أقوامكأبي عبد الله محمد بن علي بن الشيخ،

وأخيه حسن بن علي، وعمر بن ميمون بن بكر القيسي، وحمود بن غالب الهمداني وغيره. ترتيب المدارك وتقريب المسالك (ج6/ ص81).

(7) حمزة أبو فارس، بحث بعنوان : المدرسة الفقهية المالكية في ليبيا خلال القرون الأولى للهجرة.

(8) محمد بن أحمد التيمي : طبقات علماء إفريقيا(دارالكتابااللبناني–بيروت–ج1 / ص6).

(9)ترتيب المدارك وتقريب المسالك(ج1 / ص175 ، 176)

(10)الطاهر بن عاشور– أعلام الفكر الإسلامي(مكتبة النجاح – تونس– ص24).

(11) ترتيب المدارك(ج3 / ص80).

(12) ابن فرحون ؛ إبراهيم بن علي بن محمد – الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب (دار الكتب العلمية – بيروت– ج1 / ص193).

(13) أبو عبدالله الذهبي ؛ محمد بن أحمد بن عثمان– تاريخ الإسلام ، وَوَفيات المشاهير وَالأعلام ، المحقق: الدكتور بشار عوّاد (دار الغرب الإسلامي– ط1 : 2003م– ج4 / ص929).

(14) ترتيب المدارك(ج3 / ص81).

(15) تاريخ الإسلام(ج3 / ص397).

(16) أعمال المؤتمر الأول للوثائق والمخطوطات الليبية(ج2 / ص992).

(17)تاريخ الإسلام (ج3/ ص323).

(18)ابن فرحون؛ إبراهيم بن علي بن محمد، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (دار الكتب العلمية – بيروت– ج1 / ص35).

(19)كحالة ؛ عمر بن رضا ، معجم المؤلفين (دار إحياء التراث العربي – بيروت– ج1 / 269).

(20)ابن غلبون، التذكار(ص191) ، والزاوي ، أعلام ليبيا(ص352).

(21)أعلام ليبيا(ص213).

(22)محمد عَبْد الحَيّ بن عبد الكبير الكتاني ، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات ، المحقق: إحسان عباس(دار الغرب الإسلامي– بيروت– ط2 / 1982– ج2 / ص885).

(23)عمر بن رضا بن محمد راغب بن عبد الغني كحالة ، معجم المؤلفين(دار إحياء التراث العربي– بيروت– ج5 / ص228).

(24)أحمد يك النائب الأنصاري ؛ المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب(ج1 / ص243: 290).

(25) محمد بن محمد مخلوف ؛ شجرة النور الزكيّة في طبقات المالكية (دار الفكر– رقم: 1174– ص303، 304).

(26)السابق– رقم 1117(ص292).

(27)(القرافة) : بطن من المعافر نزلوا بها ، وهي بالقرب من الفسطاط فسمّيت بهم ، وهي اليوم مقبرة أهل مصر وبها أبنية جليلة ومحالّ واسعة وسوق قائمة ومشاهد للصالحين– أبو عبدالله ؛ ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي ، معجم البلدان (دار صادر– بيروت– ط2 : 1995م(ج4/ ص317).

(28) شجرة النور الزكية – رقم 1233(ص316).

(29) ذات المصدر– رقم 1226(ص314).

[30] عبدالسلام بن عثمان التاجوري ، تذييل المعيار ، تقديم وتحقيق: د جمعة الزريقي(دار الكتب الوطنية – بنغازي– 1375هـ ، ص58 وما بعدها).

[31] الطاهر أحمد الزاوي ، أعلام ليبيا(دار المدار الإسلامي – بيروت – ص227) ، وابن غلبون ، محمد بن خليل ، التذكار فيمن ملك طرابلس ، وما كان بها من الأخبار– تحقيق: أيمن البحيري(مؤسسة الكتب الثقافية ، ط1 : 1419هـ / 1998م– بيروت– ص194).

[32] المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب (ص290 : 298).

[33] ابن فرحون؛ إبراهيم بن علي بن محمد ، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (دار الكتب العلمية – بيروت– ج1 / ص234).

[34] ترتيب المدارك وتقريب المسالك (ج4/ ص397).

[35] السابق(ج6 / ص23).

[36] نفس المصدر(ج8 / ص105).

[37] الديباج المذهب(ج1 / ص311).

[38] تذييل المعيار (ص323).

[39] ابن غلبون، التذكار(ص193).

[40] ترتيب المدارك وتقريب المسالك(ج3/ ص85).

[41] الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب(ص127).

[42] ترتيب المدارك وتقريب المسالك(ج3/ ص87) ، وأبو العرب ؛ محمد بن أحمد بن تميم التميمي – طبقات علماء إفريقية(دار الكتاب اللبناني– بيروت– ص52).

[43] جريدة أبوالهول (لمحة عن العلاقات الثقافية الليبية التونسية في العصر القرمانلي) العدد 10 / 2013 ، مقال كتبه : د عبدالعزيز الفضالي.